محن الجزائر في عهد الداي عمر 1815-1817م ومواقفه منها

أ/عطية محمد /قسم التاريخ/ جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس.

attiam325@gmail.com

ملخص المقال:

يعد القرن التاسع عشر ميلادي من أدق و اخطر مراحل الحكم العثماني في الجزائر، و لعل عهد الداي عمر واحدا من تلك العهود التي توالت فيها المحن على الايالة التي كانت تسترد أنفاسها و اعظم المخاطر التي واجهها الداي ذلك التكالب الصليبي للنيل من سيادة الجزائر و انهاء سيطرتها التي فاقت قرون من الزمن على الحوض الغربي للمتوسط، و كشفت العدو من الصديق فالمساندة العثمانية و الطرابلسية و حتى المغربية كانت حاضرة.

the study's summary

The nineteenth century is considered to be one of the most accurate and dangerous stages during the Ottoman Era in Algeria. Dey Omar's Era is one of them where the Regency suffered from many adversities while it was recovering its breath.

the greatest danger that Regency faced was the Crusader Aggression to undermine Algeria's sovereign and make an end

to its domination in the Western Mediterranean that lasted for centuries. These events revealed friend from foe, Algeria gained support from Ottomans,Tripoli, as well as Morocco.

مقدمة: لم يكن عمر باشا من أولئك الحكام المحظوظين الذين تعاقبوا على حكم ايالة الجزائر في زمن استقرار الاوضاع السياسية والعسكرية وفي زمن الرخاء الاقتصادي أيضا فقد تقلد الرجل حكم البلاد بعد أن أصبحت أمورها مضطربة أكثر من أمواج البحر العاتية، وبالكاد تحكم فيها مدة سنتين كاملتين أو يزيد على الرغم من أن سلفه الحاج علي باشا (1809- 1815م) بقي على رأس السلطة ستة سنوات وهو الذي كان يلقب بالنمر لممارسة سلطته بكل قسوة، الشيء الذي دفعنا للاستقصاء عن شخصية الداي عمر. فمن يكون عمر باشا؟ و إلى اي مدى نجح في تخطي الأوضاع الداخلية المتهالكة أصلا والتصدي للتحديات الخارجية المتفاقمة؟

أولا– حياته قبل توليه الحكم:

لم يحض الداي عمر باشا بمذكرات تخلد اسمه، أو دراسات اكاديمية تثمن مجهوداته، في الوقت الذي أنجزت فيه بحوث مطولة عن سيرة كم من واحد من أولئك الدايات أو من سبقهم ممن حكم إيالة الجزائر، وكل ما عثرنا عليه عن أصله و حياته تلك المعلومات المقتضبة التي ذكرها القنصل الأمريكي في الجزائر وليام شالر (1816-1824م)، على الرغم من تهكمه على حكام الجزائر إلا أن ما أدلى به يوضح جانبا من شخصية الداي.

1– مولده ونشأته:

يعود أصل عمر آغا إلى جزيرة ميتلين (على الارجح تكون قرب اليونان)حيث ولد بها، حوالي عام 1770م على أساس أنه تقلد المنصب و عمره ثلاثة و أربيعين عاما،

ومن ملامح شخصيته أنه يتميز بقامة طويلة، قوي البنية نشيط الحركة جميل المظهر أسمر اللون كثيف اللحية وشديد سواد الشعر المخضب بالبياض، وفد إلى الجزائر وعمره ثلاثة و ثلاثين عاما رفقة أخيه الذي استطاع أن يشغل منصب الخزناجي في بايليك الشرق، ولحسن حظه كان قد نجا من محاولة اغتيال بعد أن تم الفتك بأخيه نتيجة شكوك حامت حوله من طرف الداي أحمد (1805- 1808م)، ويعود الفضل في ظهور شخصيته إلى الداي الحاج علي الذي عينه في منصب الآغا، وعليه فقد سطع نجمه عندما تمكن من التصدي لهجوم باي الغرب على مدينة الجزائر كقائد للجيش قبل سنوات[1].

ويقول عنه قنصل فرنسا بيير دوفال (P- Deval) في إحدى رسائله التي بعث بها إلى وزير خارجية دولته، بتاريخ16 مارس1816م ما يلي" يبدو أن عمر باشا يتمتع بشخصية هادئة و مفكرة، وطبعه عنيف غير أنه عادل، وقد اتخذ موقفا قاسيا ضد العرب الذين حاربهم بنجاح منذ سنوات على رأس الانكشاريين. إن هذا الأمير قد حول اتجاه الناس جميعا إلى مركز السلطة التركي، ويبدو أن حكومته على تفاهم مطلق مع الحكومة العثمانية".[2] و الوصف يتطابق مع وصف القنصل الامريكي.

عندما تولى الداي عمر منصب الدايليكية، كان يشغل منصب آغا الفرسان، و قد اتصف بأنه ذو حزم و همة كبيرتين[3]. و كان الداي عمر يخرج بذلك المظهر الذي كان يروق للقناصل الاوربيين لأن سلفه الحاج علي باشا (1808- 1815م) كان قد خلف ورائه حسب القناصل دائما ذكريات مليئة بالقسوة و الطغيان[4].

وهو على العكس منه فالقناصل كانوا يرتاحون في حضرته، إلا إذا كان هناك ما يزعجه و يعكر مزاجه. ومهما يكن من أمر فان نستنتج من خلال التقارير المتوفرة عن فترة حكم الداي عمر أنه لم يكن متغطرسا و لا يحب الرسميات كثيرا بل كان متواضعا جدا و لكن بالمقابل لم يكن سهل المنال أو التأير و يعد نموذجا لاي حاكم متبصر بأمور دولته و لم تشغله امور أخرى عن ادارة البلاد كجمع الاموال فضلا على أنه لم يكن مسرفا في القتل بمجرد الشبهة.

2- طريقة وصوله إلى منصب الداي:

يروى أن عمر آغا كان كله عزم على اعتلاء منصب الداي في الجزائر و هذا ما اسر به لمحمد علي باشا عندما قدما الاثنان معا الى مصر على متن المركب نفسه و اتفقا على ان يفترقا لكي لا يصطدما و يحققا ما يصبوان اليه، وعليه بقي محمد علي في مصر اما عمر

فقد انتقل إلى الجزائر[5]، ومهما يكن من أمر طموحات عمر آغا فإن الحاج علي قتل في يوم 11 ربيع الثاني 1230هـ/ 1815/03/23م بحمامه بعد أن ثار ضده 70 إنكشاريا، وكان وزيره عبد الله هو المخطط لهذه العملية[6]، وبعده أسند الحكم إلى الخزناجي حاجي محمد الذي بقي في الحكم أياما فقط حيث أعدم يوم 1815/04/07م على الرغم من معارضته لذلك فقد خُير بين الموت أو المنصب[7] ويشاع أن عمر آغا كان ممن خططوا لاغتيال الاثنين معا.

لم تكن حادثة الاغتيال هذه في حق الحاج علي مجرد حادثة فردية و جديدة، فعلى ما يبدو أن الرجل كان يمارس السلطة بكل تعسف و قسوة، يظهر ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها وزير الحربية العثمانية محمد خسرو(1811-1817م) إلى السلطان العثماني محمود الثاني يخبره فيها عن الحاج علي بقوله" منذ أن أصبح هذا الشخص واليا على الجزائر، تعددت المظالم مع المسيحيين بحيث أن الصداقة قد تحولت إلى نزاعات و مهاجمات"[8]. وهكذا نجد أن خلفه محمد حاجي الخزناجي لم يكن من البداية قادرا على تسيير أمور الإيالة لكبر سنه و عدم قبولها عن اقتناع منذ البداية فضلا على أنه كان يعلم مصيره مسبقا[9].

ثانيا- انجازاته ومواقفه:

بعد اعتلاء الداي منصبه حاول توثيق صلاته بحكومة الباب العالي، لما تجنيه هذه العلاقة من فوائد على صعيد استمراره في المنصب و جلب اعداد من الجند كما جرت العادة.

1- توطيد علاقاته مع الباب العالي:

يدل التفاهم الذي تكلم عنه القنصل الفرنسي مع الباب العالي على الاستعداد الذي أبداه الداي بشأن تنفيذ أوامر سلطة السلطان العثماني مهما كلف الأمر وهذا لحاجته الماسة لأعداد من الجند و كذا الاسلحة الحربية والذخائر[10] نتيجة ما اصبح يهدد أمن واستقرار الايالة، خاصة وأن الأوضاع في أوربا لم تكن على ما يرام، وأن صداها سيصل إلى الجزائر لا محالة فالحديث عن أنر البحرية الجزائرية لم يعد يخفى على أحد.

ينظر الكثير إلى العلاقات الجزائرية العثمانية في هذه الفترة على أنها كانت فاترة للغاية، ولكن هناك أمر يجب أن نوضحه هو أن عملية التجنيد التي كان من خلالها حكام الجزائر يستجلبون الجند ترتبط ارتباطا وثيقا بنوع العلاقة مع الباب العالي، فكثيرا ما منع السلاطين العثمانيون عملية التجنيد لصالح الجزائر عندما تتوتر العلاقة بينهما، وظلت هذه العملية طيلة ثلاث قرون بين الجانبين بل تم الاهتمام بها كثيرا[11]

ولما كانت الجزائر بحاجة ماسة إلى الجند فقد حاول الداي عمر توطيد علاقاته بالباب العالي ففي احدى مراسلاته للسلطان العثماني بخصوص الاوامر الشاهانية يقول" ...نعلم حضرة سلطاننا أننا قبلنا كل أمر صادر عنه بكل طاعة، إذ حسب مبادئ ديننا، نحاول دوما تجنب أي خلاف بيننا، ذلك أن الأوجاق الانكشاريين المظفرين وعبدكم المتواضع، هم جميعا رعايا جلالة السلطان. إننا سعداء أن نكون تحت أوامر جلالة السلطان وليس لنا طريق نسلكه غير الانصياع للأوامر السلطانية، إن ذلك لواجب علينا و نحن على استعداد لفداء أنفسنا دفاعا عن هذا المبدأ.[12]

يلاحظ أن سياسة الداي كانت تصب في مصالح الدولة العثمانية بالدرجة الاولى لكي لا يمنع من التجنيد، و هذا حال الكثير من الحكام السابقين فضلا على أن تكون لهم الشرعية والحماية اللازمة من لدن السلطان العثماني و هو عكس ما كان في عهد الداي السابق الحاج علي، على الرغم من طول فترة حكمه، فالداي قد تسلح بهذا

السلاح لكي لا يجد متاعب في ادارة الايالة، ولكن كثيرا ماانقلب الجند على الدايات و حتى على الحكام الذين عينهم السطان بنفسه، ولم يجدوا الشفاعة التي تحميهم من مغبة غضب هؤلاء الجند العتاة غير المبالين بأوضاع البلاد.

2- دوره في تسيير أمور الايالة:

خول المنصب الذي كان يشغله عمر آغا قبل توليه منصب الداي كآغا للفرسان الاطلاع عن كثب على أمور الجيش و حتى البحرية، ولعل هاتين الركيزتين الاساسيتين هما صمام الامان للإيالة وعليه لم يغفل عن الاهتمام بهما فضلا عن أمور أخرى لا تقل أهمية ومن مظاهر ذلك نذكر:

أ- تجاوز محنة غزو الجراد:

كان من أبرز ما صادف حكم الداي عمر هو انتشار الجراد بأعداد كبيرة جدا، نتيجة زحفه ثم تكاثره، و هو ما افنى مساحات كبيرة من المزروعات و الأشجار حيث سادت بعده موجة من الغلاء، وهو ما حاول الداي تجاوزه بسياسته المتمثلة في توزيع الخبز على سكان المدينة ولكنهم صاروا يقتتلون عليه، وبقيت الحالة كذلك حتى حصد الناس في السنة المقبلة و زال هم الجوع و الجراد معا.[13]، ولكن صاحب الرواية لم يذكر أمر المدن الأخرى كوهران و البليدة وقسنطينة ومدن الجنوب ، ولعل حالها لم يكن بأحسن من حال مدينة الجزائر فالبلاء كان عاما ولم يقتصر على ناحية معينة.

ب- تقوية الجيش: راسل الداي السلطان محمود الثاني بشأن تزويد الجزائر بأعداد من الجند ولكن هذه العملية كانت تتطلب وقتا كما أنها تخضع لمستوى العلاقة بين الايالة والباب العالي كما أسلفنا، وبما أن الداي كان يحظى بقدر جيد من الاحترام لدى السلطان، فإن الأخير لم يعارض هذه العملية، ويذكر أنه مع بداية حكمه أي في مطلع

سنة 1815م كان قد وصل إلى الجزائر ما يقارب 1290 جنديا انكشاريا على مدار العامين المقبلين تقريبا[14]، يلاحظ أن هذا العدد كان كبيرا إذا ما قورن بفترات لاحقة من عمر الايالة فيشار أن تضاعف المجندين يتوقف كذلك على حجم الاخطار التي كانت تحدق بالايالة وفترة حكم الداي عمر كانت كذلك، و العكس بالنسبة لخلفه الداي علي الذي باشر جملة من الاصلاحات في هذا الجهاز و هو التخلص من الجند الانكشاريين ممن كانوا يحدثون الاضطرابات و الفوضى من حين لآخر[15].

ج- تنمية مداخيل الخزينة:

ورث الداي عمر خزينة خاوية، وما كان فيها لم يكن ليسد مرتبات الجند الذي يسهر على حماية الايالة، وقد بعث برسالة في هذا الشأن للسلطان العثماني يخبره بما آلت إليه الأوضاع المالية في البلاد بقوله" اننا ملزمون على دفع اتاوات ما بين ثلاثين وأربعين ألف انكشاري، ففي سالف الزمن كنا ندفع أجورهم دفعة واحدة، ولكن منذ عشر سنوات لم نتمكن من مضاعفة إتاواتهم كذلك كنا نسدد الاجور كل شهرين، أما اليوم فإن تسديد اتاواتهم يتم مرة واحدة كل أربعة أشهر بالنسبة للبعض وستة أشهر بالنسبة للبعض الآخر، وقسم ثالث تسدد أجورهم كل سنة"[16]، نستنتج أن العجز الذي كانت تعاني منه الخزينة لم يكن وليد الساعة بل كان منذ عهد الداي مصطفى باشا (1798-1805م)، ولم يستطع الداي عمر تجاوز هذا العجز لأسباب عدة أبرزها تسلط اليهود على تجارة الجزائر على الرغم من مقتل اليهودي بوشناق في تلك الظروف الحالكة التي قتل في الداي مصطفى.

3- دوره في التصدي للحملة الانجليزية الهولندية 1816م:

تأتي الحملة الصليبية المشتركة الانجليزية الهولندية كنتيجة لمؤتمر فيينا، فبعد أن رفعت أشغاله كانت زمام الامور بيد أنجلترا، فهذه الاخيرة كانت قد استضافت مؤتمرا بالعاصمة لندن ضم بمعيتها كل من دول هولندا و فرنسا و بعض من الدويلات الايطالية، بغية تكوين قوة بحرية مشتركة للقيام بعمل ردعي ضد البحرية المغاربية، كما

أوصى بذلك الانجليزي سيدني سميث في المؤتمر الأوربي بالنمسا قبل أشهر. ولكن العلاقة التنافسية بين فرنسا و أنجلترا حول الفضاء المتوسطي لم تتركها تبدي مشاركتها في الحلف المزمع تشكيله بل كانت تفضل الاعمال البحرية المعادية على السطيرة الانجليزية على المتوسط.[17] إن ما فشل فيه قادة مؤتمر فيينا بخصوص توجيه انذار لداي الجزائر و الذي يعد مأزقا حال دون توحيد الكلمة، كان قادة مؤتمر لندن قد وقعوا في المأزق نفسه، ولكن الملك الانجليزي سان جيمس (Saint James) كان له رأي آخر، فقد أمر اللورد إكسموث (Lord Exmoth) بالتوجه على رأس الاسطول الملكي ليطلع حكام إيالات الدولة العثمانية بشمال إفريقيا بقرارات المؤتمر ويعمل على تحرير كل الأسرى المسيحيين لا سميا منهم الايرلنديين، حيث حل قبالة

مدينة الجزائر شهر مارس 1816م[18].

بعد المحادثات كان الداي قد أطلق عددا من الأسرى الايرلنديين دون مقابل وبعده أقلع صوب تونس و طرابلس للغرض نفسه، ولكنه في طريق عودته عرج على ميناء الجزائر ثانية للي ذراع الـداي بخصوص إلغاء القرصنة و الاسترقاق، حيث تم تسـوية هذه القضيـة و طلب من الداي ان تحمل هدية السلطان العثماني على متن سفينة انجليزية[19]، غير أنه بالمقابل كان يميل إلى استعمال القوة بعد نزوله على الأرض ولكن الداي لم يكن ممن يخشون تهديدات الأجانب وأظهر له عكس ما توقع فانصرف بمراكبه نحو بلده غير مرغوب فيه.[20] تروي بعض الكتابات بأن الداي كان في موضع قوة، من خلال توضيحها بأن الشروط الاولى التي اتفق عليها الداي و قائد الاسطول كانت هي شروط الداي وفقا لأوامر الباب العالي، من خلال موقف الاميرال الانجليزي الذي كان قد اعتذر للداي عن تصرفاته غير المقبولة اطلاقا[21]، بعد أن لامه عن سلوكه الغريب و المشين الذي ينم عن تغير مواقفه و اخلاله بالتزاماته كما أنه أمر الاميرال بضرورة سحب سفن من مرمى المدافع الجزائرية [22]. وهنا نستشف بأن اللورد إكسموث

اعتذر خوفا من تحطم اسطوله طالما أنه لم يكن في موضع يستطيع الدفاع عن نفسه أو قصف المدينة و هو ما ستثبته الايام القادمة.

لم يكن هذا آخر عهد الداي باللورد اكسموث بل غضب الملك جيمس من النتائج المحققة وطلب من قائد الاسطول ضرورة العودة إلى الجزائر بعد أن وصلته الأنباء عن تعرض مركز صيد المرجان بالشرق الجزائري لهجوم من طرف الجزائريين، فضلا عن وابل الاهانات التي لحقته من طرف أوربا واتهامه بالعمل لمصالحه الخاصة، وعليه غادر الاسطول الحربي مرفأ بليموث الانجليزي، بقيادة اللورد اكسموث وعند وصوله إلى مضيق جبل طارق (baie de Gibraltar) كان على موعد بالاسطول الهولندي الذي يقوده الاميرال فان كابلان(Van de Cabellen)[23].

وصل الاسطول المشترك إلى ميناء الجزائر يوم 27 اوت 1816م، وكان في نيته ضرب المدينة وليس عقد الصلح كما تبينه الوقائع فالقائد أمر الداي بأن يعقد الصلح ويرد عليه في ظرف ساعة فقط بجواب واضح، وكان يحمل العلم الابيض[24] وبينما الداي ووزرائه في اجتماع تقدمت السفن في الميناء و اتخذت وضعية القصف، و مما يجب أن نوضحه هو موقف الداي عمر من الطلب أنه رفضه تماما قبول الصلح الذي يريده الاميرال، وهكذا شرع الاعداء في قصف المدينة دون توقف[25].

ومهما كان الأمر فإن هناك من يشير بأن الجزائريين هم من بدأ بالقصف. ولكن النتيجة كانت واحدة وهي تحطم الاسطول الجزائري عن آخره ، وبعد مرور يوم اضطر الداي إلى عقد الصلح بالشروط التي أملاها قائد الاسطول المسيحي، التي أقل ما يقال عنها بأنها مهينة ولعل أبرزها تقديم الاعتذار للأميرال و القنصل[26] ولكنه لم يكن يعلم بأن مؤن اسطول العدو و ذخائره قد نفدت من شدة القصف[27] فدوغرامون يروي بان عدد الكرات الحديدة التي رميت على المدينة كانت نصف مليون بينما القنابل كانت تقدر ب980 قنبلة[28]، كتب الداي عن هذه الماساة التي لحقت به و بالمدينة للسلطان العثماني قائلا لقد كانت معركة حامية الوطيس، لم ارى مثلها في حياتي و في تاريخ الانسانية، ودامت احدى عشرة ساعة و ثلاثة و عشرين دقيقة لم نرى الراحة

أثناءها[29].حقا لقد كانت نكبة تسببت فيها الخديعة و الافعال اللامسؤولة للاميرال الانجليزي.

4- إعادة بناء الاسطول:

بعد هذه الرسالة سارع السلطان العثماني بتزويد الداي بسفن[30]كما أمدتها طرابلس الغرب والمغرب ببعض المراكب [31]، ويذكر أنه اشترى أربعة سفن حربية وتم تجهيزها بكل ما تحتاج، وكانت عمليات بناء السفن قائمة ففي هه الاثناء كان قد بنى مركبا حربيا في احواض السفن المخصصة لذلك كما جلب غواصين من نابلي لتنقية الميناء مما علق به من رواسب و مخلفات الحرب السابقة و أعاد له هيبته في ظرف قياسي[32] و ماهي إلا ثلاثة أشهر حتى ظهرت سفن الجزائر ومراكبها في عرض البحر المتوسط تشق عبابه، حيث انطلقت ست سفن من ميناء الجزائر في شهر نوفمبر من السنة نفسها[33]ولكن الداي عمر كان قد فقد حياته قبل لأن يراها كذلك

ثالثا- علاقاته الخارجية:

تشعبت علاقات الجزائر الخارجية مع العديد من الدول سواء الجارة منها كإيالتي تونس و طرابلس الغرب و المغرب او دول غرب أوربا المتوسطية من فرنسا إلى الدويلات الايطالية فاسبانيا التي اصبحت منذ فتيرة يسيرة لها علاقات بعد جلائها عن وهران والمرسى الكبير، ولم يكن شغل الداي و همه تسير حكمه و الحفاظ على منصبه بل عمل على ربط و توثيق صلاته بالدول التي كانت لها صداقة مع الجزائر من الدول التي تم ذكرها.

1- مراسلاته مع فرنسا:

نستطيع أن نقول بان فترة حكم الداي كانت صعبة جدا على صعيد علاقاته مع فرنسا، حيث تزامن حكمه مع عودة نابليون إلى الحكم بعد أن فر من جزيرة البا (Elbe) و أزاح حكم عائلة آل بوربون في غضون مارس 1815م[34]، فقد كانت

هناك مراسلات بين الجانبين الجزائري و الفرنسي على مستوى عال بين الداي و نابليون الاول، ثم مع الملك لويس الثامن عشر كما كانت هناك مراسلات بين الداي ووزير الخارجية الفرنسي الدوق دو فيسانس و يليه البرنس دو تليراند في الفترة الممتدة ما بين 1815/04/29م و 1816/03/02م[35]. وعليه و بالرغم من التغير الجذري على راس السلطة الفرنسية الا أن العلاقات لم تتأثر بدرجة التغير الذي كان يحدث في فرنسا، و هذا الامر كان من مصلحة الداي حيث انه لم تحدث أي ازمة على صعيد العلاقات مع هذه الدولة و بالتالي فقد اتقى شرها ولن تزعجه كما كانت تشكل خطرا عى حكم دايات القرن السابع عشر. ونستنتج عاملين أساسيين اديا الى استقرار العلاقات في هذه الفترة أولهما معاهدة السلم المئوي التي عقدت في أواخر القرن السابع عشر و التي على الرغم من انقضائها لم تقم فرنسا باستعمال اسلوب القوة مع الجزائر مرة أخرى، أما العامل الثاني و هو اشتغال فرنسا بالثورة التي شهدتها و ما انجر عن ذلك من تداعيات على مستوى القارة الاوربية، وعليه لم يكن باستطاعتها التحرك ضد الجزائر بل رات فيها حليفا استراتيجيا ضد الاوربين و تذكرنا الحالة هذه بأمر الملك فرنسوا الاول الذي كان متحالفا مع السلطان العثماني سليمان القانوني اواسط القرن السادس عشر، و فرنسا لم تجد في الجزائر مجرد حليف بل ممون من الدرجة الاولى بالحبوب وغيرها فستعمل جاهدة للحفاظ على علاقاتها معها.

و بذكرنا لتموين الجزائر لفرنسا بمختلف المواد يشار إلى أنه كانت هناك منافسة كبيرة بين الأسرتين اليهوديتين أسرة دوران داود و أسرة بكري و بوشناق على الاستحواذ على تجارة الجزائر ، و ما كانت تدره من عائدات مالية من خلال الدسائس التي كانوا يقومون بها لكسب ود الدايات[36]، لفائدة فرنسا خاصة ولكن مصيرهم كان مأساويا للغاية مثل الدايات الذين كسبوا صداقتهم أيضا، في حين من كان يدفع الثمن هم من الأهالي فالضرائب كانت فوق طاقتهم فضلا عن فترات الجوع رغم توفر الخيرات من المحاصيل الفلاحية والثمار في بعض الأعوام.

2- قرارات مؤتمر فيينا و القضية الجزائرية:

عندما تولى عمر حكم الايالة كان مؤتمر فيينا لازال قائما وجلساته مازالت تعقد، وعلى الرغم من أن المؤتمر لم يكن موجها ضد البحرية المغاربية بالخصوص إلا أنه ناقش القضية على هامش جلساته، ومن أهم تلك التقارير التي وردت إلى قادة المؤتمر مذكرة سيدني سميث الذي بين فيها الاخطار التي باتت تشكلها القوة البحرية المغاربية و عل الخصوص الجزائرية منها لكونها عقبة في طريق ازدهار تجارة الامم الأوربية حسب زعمه وفي السياق نفسه أوضح الوسائل و الكيفيات التي يمكن من خلالها وضع حد لمثل هذه الاعمال الخارجة عن القانون وتهدد سلامة التجارة و الامن الاوربية[37].

وعلى الرغم من أن القوى الاوربية التي كانت مجتمعة في قمة فيينا لم تأخذ المذكرة على محمل الجد فإن الانذار الذي كان سيوجه للداي لم ير النور هو كذلك، وفي هذا الصدد يجب أن ننوه بأن الأمور في البحر المتوسط كانت إلى حد كبير تحت تصرف انجلترا، لأن فرنسا لا زالت تئن تحت الحصار الاوربي المفروض عليها وعودتها للحياة السياسية الاوربية لن تكون كذلك إلا بعد دفعها تعويضات الحرب المفروضة عليها من قبل الحلف الرباعي، و هنا يظهر أن البحرية الانجليزية لم تكن متضررة من الاعمال البحرية الجزائرية أو المغاربية، بل على العكس فإن هذه الدولة و فرنسا حتى كانت في هذه الفترة سعيدتين تماما برؤية سفن الجزائر تستولي على سفن الدول الاوربية الصغيرة كالمدن الايطالية و الاراضي المنخفضة[38].

ومما يؤسف له أن و لم نجد له تفسير هو حرص الانجليز على الحاق الضرر بالبحرية الجزائرية حيث نجد أن الجزائر و بحريتها على مدار الثلاثة قرون كانت في مواجهة الاسبان في البداية ثم الفرنسيين و اخيرا دول شمال أوربا و الانجليز ولم يستطيعوا النيل منها بل جعلوا منها دولة عسكرية بالدرجة الاولى يحسب لها كم من حساب، و للتدليل على ما قلنا فالانجليز لم تؤسر لهم سفينة واحدة طيلة الفترة الممتدة من 1693 إلى 1815م ما عدا تلك التصرفات الفردية التي كان يقوم بها الجزائريون دون علم حكومتهم في حين كان قراصنة فرنسا قد استولوا على ما مجموعه 25 ألف سفينة تجارية انجليزية[39]، فهل يعقل أن يحارب الانجليز دولة لم تتعرض لهم بسوء منذ زمن طيل جدا،حتى الاجيال

التي شهدت تلك المعرك البحرية نجدها قد انقرضت و بادت عن آخرها، أليس حليا بها أن تحارب فرنسا دون توقف لعلها تسترجع ما فقدته.

3- اعادة الباستيون للفرنسيين:

هناك عدة أسباب رئيسية حملت الداي عمر على ارجاع الباستيون إلى فرنسا كما كان منذ 10 أعــوام

فالسبب الأول هو الحملة الانجليزية الأخيرة على مدينة الجزائر حيث كانت العلاقات قد توترت تماما بين الطرفين وبالمقابل كانت حسنة مع الفرنسيين، أما السبب الثاني فهو عجز الخزينة الذي كان يؤرق الداي فقد سلم الفرنسيين المؤسسة مقابل 60 ألف فرنك فرنسي، يضاف إلى ذلك نهاية فترة استغلال الانجليز للباستيون، لكن ما يؤسف له أن اليهود كانوا لا يزالون ينهبون خيرات البلاد فهذا اليهودي ايسكودير رجع للسرقة والسلب ثانية و حكام الجزائر في غفلة[40].

4- موقفه من أداءات تونس:

ظلت تونس تدفع أداءات مالية لخزينة الجزائر طيلة العهد العثماني تقريبا، إلا في الحالات النادرة التي كانت فيها القطيعة بين الطرفين، وقد كانت هذه الالتزامات المالية كبيرة عليها وهي زيادة على ما يتم تسديده من المتطلبات المالية المتزايدة خاصة في هذه الفترة الحرجة بالذات، وكان من بين ما يتم دفعه للجزائر 250 جرة من الزيت، و 20 جرة من الصابون و الهدايا المختلفة كالبرانس والعطور وغيرها[41]، وفي عهد الداي عمر وصلت العلاقات بين الايالتين لحد القطيعة فقرر الباي التونسي عدم دفع هذه الاداءات خاصة وأن الحرب بين الطرفين قد بلغت الذروة في عهد الريس حميدو، و كان

الداي يصر على ضرورة تقديم هذه المستلزمات، وفي هذا الشأن حاول السلطان العثماني محمود رأب الصدع بين الايالتين الشقيقيتن من خلال فرمان كان قد أرسله للغرض ذاته حيث بين موقف الباي التونسي من القضية المتنازع عليها(الأموال) وهي عدم الالتزام بها[42]. وعليه فقدت خزينة ايالة الجزائر مزيدا من المصادر المالية التي كانت قبل فترة شبه قارة و منتظمة.

5- موقفه من الشروط الامريكية للصلح:

ظلت الولايات المتحدة الامريكية تدفع الضرائب و الاتاوات المالية لدايات الجزائر انطلاقا من سنة 1795م[43]، يعود ذلك إلى بقاء مكانة الجزائر راسخة في أذهان الاوربيين والامريكان على حد سواء، و لكن الاخريين كانوا غير قادرين على شن حملة على الجزائر كما كان يفعل الاوربيون، و لما سمحت لهم الفرصة بذلك استطاعوا ضربها[44].

تعد معاهدة غانت (Ghent)24 /1814/12م التي عقدتها الولايات و انجلترا هي البداية الفعلية للحرب الجزائرية الامريكية، في حين كانت البحرية الجزائرية منشغلة بحروبها ضد الاوربيين[45]. وقد طال بحارتها التعب و الاعياء الشديدين نتيجة عدم استقرار العلاقات مع الدول ففي كل مرة تخرج دولة من هذه الدول بأمر جديد تضطر الجزائر لحربها، ونلاحظ أن السبب الرئيسي الذي يقف وراء ذلك هو عدم استقرار محكام الجزائر في مناصبهم فترة طويلة على عكس الاوربيين وهو ما يخلق تغيرا في اسلوب الحكم دائما.

كان الامريكان على علم بتضعضع مكانة البحرية الجزائرية و ما تكابده من مشقات و حصار غير معلن على الرغم من أنه في هذه الفترة التي تعد من أزهى عهود البحرية الجزائرية بفضل الله تعالى أولا ثم فضل الريس حميدو الذي اعاد اليها نشاطها المعهود، و ما آلت إليه الاوضاع هناك فهذه الحرب لم تكن للتخلص من دفع الضرائب فحسب بل لإعادة القنصل الامريكي للجزائر بعدما طرد من طرف الداي على عام 1812م عندما امتنعت الو م أ على دفع الاتاوات و ما عليها من أموال[46].

قررت الولايات المتحدة اعلان الحرب على الجزائر بعد تفويض مجلس الشيوخ على ذلك، فكلفت القائد بنبريدج (Bainbridge) و ديكاتور (Decatuer) بصحبة وليام شالر التوجه نحو الجزائر و عقد صلح بالشروط الأمريكية، وعليه غادر الاسطول ساحل الو م أ في غضون ماي 1815م، ولما كان يعبر مضيق جبل طارق[47]، حيث كان هناك الريس حميدو على متن فرقاطة و ترافقه أخرى و سفينة ثالثة من نوع بريك في مهمة أرسله فيها الداي لملاحقة السفن الاجنبية و خاصة الامريكية في اطار الحرب بين الدولتين، فقام الامريكان بواسطة بوارجهم الحربية الثمانية بملاحقة الريس حميدو و التشابك معه حتى قتل الريس بتاريخ 17جوان 1815م[48] في معركة غير متكافئة و قتل عدد آخر كما أسر بعض آخر و أكمل الاسطول المعتدي طريقه إلى الجزائر يحمل هذه الاخبار غير السارة للداي التي ما فتئت المصائب تحل عليه من كل صوب و حدب منذ أن تولى مقاليد الحكم .

إن هذه النكبة التي حلت بالجزائر كانت كبيرة جدا فالبحرية الجزائرية التي فقدت هيبتها منذ زمن بعيد أعاد حميدو لها هذا الامل و هو الذي طالما سجل انتصارات باهرة على سفن الاعداء. و في هذا الصدد يروي وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر أنه منذ هذه المعاهدة فصاعدا أن عقد المعاهدة لم يكن يتطلب وقتا طويلا،فداي الجزائر اصبح في وضع لا يسمح له بالمناورة إطلاقا وأن الجزائريين قد وافقوا على كل الشروط التي قدمها أولئك و المتضمنة اساسا الامتناع عن دفع الاتاوات في المستقبل، على أن هذه التهديدات التي تلقاها الداي و الشروط التي فرضت على الجزائر فرضت كذلك على حكام كل من إيالتي تونس و طرابلس الغرب[49] .

6- رفضه التفاوض مع الهولنديين:

عندما استطاعت الو م ا التخلص من التزاماتها المالية للجزائر بعقدها اتفاقية بالشروط التي ترضاها، كانت أوربا لا زالت تحارب نابليون بعد أن فر من منفاه في جزيرة ألبا، ولكن ما لبث ان انهزم ثانية و في تلك الأثناء كانت قد وصلت لمسامع الأوربيين ما أقدم عليه ألأمريكان حيث كان ذلك مشجعا لهم، و اول دولة سعت لإعادة فرض

شروطها على الجزائر هي هولندا، ولكن الداي عمر رفض اعادة التوقيع عل الاتفاقية القديمة شرط دفع الهولنديين ما عليهم من ضرائب متأخرة ما لم يتم دفعها[50]، وهكذا كانت هذه الدولة متحمسة لضرب الجزائر و التخلص من عبئ دفع الاموال لها.

رابعا– وفاته:

يذكر أنه بعد الكارثة التي حلت بمدينة الجزائر عقب القصف الانجليزي الهولندي، بلغت القلوب الحناجر لدى افراد الجيش و عامة اهالي مدينة الجزائر، و على الرغم من أن الداي استطاع تجاوز تلك المحنة و لو مؤقتا غير ان صورتها بقية ماثلة في أذهان طائفة الجند، و عليه فقد تعرض لمحاولة اغتيال اواخر عام 1815م على يد وزير البحرية التي تقلدها مكافاة على اغتياله للداي السابق[51] ولكن اندلا ع الثورة بمدينة

الجزائر من طرف هؤلاء الجند كلفه حياته يوم 08سبتمبر 1817م خنقا في القصر دون مقاومة تذكر[52].

خاتمة: ان المتتبع للأحداث التي وقعت في عهد الداي عمر سيجدها حتما أحداثا عظيمة للغاية، كما أنها لم تحدث بسببه، فضلا على أن موقفه لم يكن لوحده بل كان يشاور وزرائه فيما هو مقدم عليه، بل الأكثر من ذلك أن سياسته تخطت بسرعة كبيرة لتلك المحن الشاقة، و لم تترك لها مجالا للبقاء، وما يؤخذ على الداي أنه لم يستفد من الاخطاء التي ارتكبها أسلافه على الرغم من بقائه في الجزائر مدة طويلة قبل تقلده المنصب و كان على دراية كبيرة بخبايا الحكم فيها. فهل استقرار أمور الايالة في عهد الدايين الذين حكما بعده كانت نتيجة تحاشي ما وقع هو فيه، فعلى الاقل أنهما لم يلقيا المصير نفسه الذي لاقاه هو.

[1] شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م، تعريب العربي اسماعيل، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982م، ، ص ص160-163.

[2] التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس الجزائر ليبيا، 1816-1871م، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس 1972م، ص237.

[3] أوجين بلانتي، مراسلات دايات الجزائر الى ملوك ووزراء فرنسا، ترجمة جيجيك الياس و سلامنية بن داود، ج3، ط1، دار الوعي للطباعة و نشر والتوزيع، الجزائر 2014م، ص247.

[4] أوجين بلانتي، المرجع السابق ، ص247.

[5] الزهار أحمد الشريف، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر، تحقيق المدني أحمد توفيق، دار البصائر، الجزائر 2009م، تهميش ص144.

[6] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص236.

[7] أوجين بلانتي، المرجع السابق ، ص247.

[8] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، 234.

[9] شالر وليام، المصدر السابق، ص 163.

[10] التميمي، المرجع السابق، ص237.

[11] حنيفي هلايلي، بينية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلية، الجزائر2007، ص11.

[12] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص245.

[13] الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص145.

[14] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، 237.

[15] هلايلي حنيفي، بنية الجيش، المرجع السابق، ص24.

[16] التميمي عبد الجليل ، المرجع السابق، ص237.

[17] حنيفي هلايلي، العلاقات الجزائرية و نهاية الايالة1815-1830م، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر 2007م، ص13-14.

[18] بوعزيز يحي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك اوربا(1500-1830م)، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م، ص121.

[19] هلايلي حنيفي، العلاقات الجزائرية...، المرجع السابق، ص ص 25- 26.

[20] بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص121.

[21] شويتام أرزقي، نهاية الحكم العثماني بالجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر 2011م، ص152.

[22] شالر وليام، المصدر السابق، ص153.

[24] CHabaud Arnault, attaque des batteries algeriennes par lord Exmouth en 1816,revue africaine, N°16, 1875,p195.

[24] De Grammont (H. D), Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), paris, Ernest Leroux Editeur,1887,p377.

[25] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص239.

[26] بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص 122.

[27] جون وولف، الجزائر و أوربا 1500-1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر 2009م، ص446.

[28] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص240.

[29] Belhamissi (Moulay), Marine et Marins d'Alger 1518 -1830, T 2, Alger, bibliothèque nationale d'Algérie, p .74

[30] بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص 122.

[31] التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص241.

[32] شالر وليام، المرجع السابق، ص168.

[33] التميمي عبد الجليل،المرجع السابق، ص ص240-241.

[34] شويتام أرزقي، المرجع السابق، ص149.

[35] بلانتيت اوجين، المرجع السابق، ص ص247- 264.

[36] شويتام ارزقي، المرجع السابق، ص127.

[37] تابست علي، مذكرة سيدني سميث ضد النشاط البحري لدول الغرب، مجلة الدراسات التاريخية، العدد7، جامعة الجزائر،1993م، ص ص167-169.

[38] جون وولف، المرجع السابق، ص429.

[39] مروش لمنور، دراسات عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني(القرصنة بين الاساطير و الواقع)، ج2، دار القصبة، الجزائر2009م، ص480.

[40] بوعزيز، المرجع السابق، ص122.

[41] هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر، في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للنشر و التوزيع، عيم مليلة الجزائر2008م، تهميش ص52.

[42] خط همايون، عدد 31210، تاريخ 1231هـ، تعريب طونا فكري، الأرشيف الوطني الجزائري، العلبة 24، ص ص1-2.

[43] شويتام أرزقي، المرجع السابق، تهميش ص145.

[44] هلايلي حنيفي، علاقات...، المرجع السابق، ص21.

[45] وليام شالر، المرجع السابق، ص146.

[46] هلايلي حنيفي، علاقات...، المرجع السابق، ص21.

[47] شويتام أرزقي، المرجع السابق، تهميش ص144.

[48] Garrot Henri, Histoire générale de l'Algérie, Alger, imprimerie P. Grescenzo, 1910,p 630.

[49] وليام شالر، المرجع السابق، ص147.

[50] شويتام، المرجع السابق، ص149- 150.

[51] شالر، المصدر السابق، ص ص172-173.

[52] بلانتي اوجين، المرجع السابق، تهميش ص266.